صبيحة العيد

قـرّرت ألا أكتـب بالعيـد. كنـت بحاجـة إلى اسـتراحة بعـد الكتـابات الرّمضـانيّة، "روقـان صـايم"، والـتي اسـتمرّت شـهرًا إلا أيام معـدودات. هـا أنا أجـد نفسـي ماسـكًا لقلمـي وأكتب من جديد. كيف بإمكاني مقاومة شغف الكتابة؟!

نمـت متـأخرًا جـدًا قبـل العيـد بيـوم، نمـت السّـاعة الثّالثـة فجـرًا بعـد أن عـدت مـن سـفرٍ، وقلـت لنفسـي أنـني سـأنام حـتّى سـاعة متـأخّرة يـوم العيـد. لا حاجـة للاسـتيقاظ مبكّـرًا، فـالزّوّار سـيأتون بسـاعة متـأخّرة نسـبيًا. لكنـني تفاجـأت أنـني اسـتيقظت مبكـرًا رغـم نومي المتأخر.

تيقّنـت أننـا لا ننـام صـبيحة العيـد لأنّنـا نحـب لحظـات العيـد الأولى كمـا كنّـا صـغارًا. سـألتني صـديقتي المثقّفـة ايزابيـل: "هـل الـذّكريات تعيـد لنـا طفولتنـا؟!". أجبتهـا بحـزن: "لا شـيء يعيـد لنـا الطّفولـة، لكـن الـذّكريات تثـير فينـا المشـاعر خاصّـة ذكـريات الطّفولـة والشّـباب". كثـيرًا مـا يحـزنني عنـدما أسمـع خـبر وفـاة أحـد رمـوز الـزّمن الجميـل. أشـعر أنّ جزءًا مني قد مات.

مـا علينـا، لنـدع الحـزن جانبًـا فـاليوم يـوم عيـد. صـحوت مبكـرًا كمـا اعتـدت أن أسـتيقظ وأنا ولـد صـغير. حينئـذٍ لم أنجـح بالنّـوم حيـث كنـت أصـحو مـرارًا وتكـرارًا، رافعًـا رأسـي فاحصًا إذا كانت الشّمس قد سطعت، ويخيب أملي إذا لم يكن الأمر كذلك.

أنام وملابـس العيـد بجانـب السّـرير، أتفحّصـها مليًّـا وأتأكـد مـن وجودهـا في مكانهـا، أتخيّـل نفسـي ألبسـها متأنّقًـا، إذ كنّـا نشـتري الملابـس الجديـدة مـن العيـد للعيـد، لا قبـل ولا بعـد. كنّـا ننتظـر خروجنـا صـباحًا بصـبر شـديد، نـدور علـى بيـوت الأقـرباء، نعـرف أيـن نـذهب ومـتى. كنّـا نصـنّف الاقـارب حسـب العيديّـة وحجمهـا. كـان مـن الأقـرباء

مـن يُعَيّـدنا، ومـنهم مـن يتجاهـل هـذه العـادة، قـد يكـون بُخـلًا أو لضـيق الحـال. لكننـا عرفنـا مـن الـذي يعطـي ومَـنْ الـذي يمنـع، لنـذهب بهـا لمشـاهدة فـيلم سـينمائي أو لشـراء "سـاندوتش" لم نقـدر علـى شـرائه في الأيام العاديّـة. لقـد بقـي في ذاكرتنـا مَـنْ كـان يمنحنـا النقـود، أحببنـاه ومـا زلنـا نـذكره بالخـير إلى الآن. لهـذا فقـد حرصـت دومًـا علـى إعطاء النّقود للأولاد في يوم العيد. أنا متأكد أنّهم سيذكرونني بسبب ذلك.

بالأمـس أعطيـت "العيديّـة" لأبنـاء أخـتي الفـرحين لقـدومي. الأولاد أيضًـا يعرفـون مـن أيـن تؤكـل الكتـف. يأتـون مبتسـمين فـاتحين أيـديهم ونظـراتهم "البريئـة" تسـبقهم. أعطيـتهم مـا جـادت بـه نفسـي. هرعـت ابنـة أخـتي الصّـغيرة، والورقـة الصّـفراء مـن فئـة المئة تلوح بيدها:

"مامـا مامـا خـالي عيّـدني". اقتربـت مـن أمّهـا فرحـةً. فمـا كـان مـن أمّهـا أنْ همسـت بأذنها:

"روحي رجعيها ولا تقبلي بأقل من الورقة الزرقاء (ذات المئتين).

آه كيف فقد ابناؤنا براءتهم.

أ.أيمن جبارة